العمارة الإسلامية في العهد العباسي - ABBASID ARCHITECTURE

العمـــــارة الأيـــــوبية - Ayyubid Architecture

(569-658 هـ/1173-1259 م)

تنسب الدولة الأيوبية إلى مؤسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي الأصل، الذي ظهر على مسرح الأحداث كقائد في جيش الشام الذي أرسله نور الدين إلى مصر لحمايتها من الخطر الصليبي سنة 564هـ/ 1168 م، فأصبح وزيرا للخليفة الفاطمي والحاكم الفعلي لمصر. حيث ألغى الدولة الفاطمية بعد وفاة الخليفة عام 567 هـ. ظل صلاح الدين يحكم مصر كنائب لنور الدين حتى وفاة هذا الأخير سنة 569 هـ/ 1173م فآلت إليه السلطة على مصر والشام واليمن والحجاز والجزيرة. تابع صلاح الدين تحرير البلاد من الصليبيين.

وكانت دولة الأيوبيين في عهده وعهد أخيه الملك العادل أبي بكر محمد من أقوى الدول الإسلامية. ولكن الصراع على السلطة والخلاف بين أولاد صلاح الدين ومن ثم بين أولاد أخيه أضعف هذه الدولة بالإضافة إلى خطر الصليبيين واستمرار حالة الحرب. كانت نهاية الدولة الأيوبية على يد المغول عندما غزوا بلاد الشام عام 1259 م.

شهدت البلاد التي حكمها الأيوبيون، رغم الحرب المتواصلة مع الصليبيين، نهضة حضارية ونشاطا عمرانيا بسبب رسوخ الوحدة بين بلاد الشام ومصر في هذه الفترة. تمت العناية ببناء المنشآت الدينية والمدارس والبيمارستانات والحمامات، كما أوليت أهمية خاصة بتحصين المدن وتجديد أسوارها إضافة إلى بناء القلاع داخل وخارج المدن وتحصينها. وبشكل عام ترتبط أبنية هذه الفترة بالعمارة السلجوقية التي سبقتها مع ظهور بعض التجديدات.

1. العمـــارة الأيـــوبية في بـــلاد الشـــام -العمـــارة الديـنية والمدنيـة

1.1. بدايات العمـــارة الأيـــوبية في دمشـق

اهتم الأيوبيون مثل السلاجقة ببناء المدارس وكثيرا ما جعلوها مرتبطة بتربة. تركزت هذه المدارس في دمشق قرب الجامع الأموي في حي الكلاسة وكانت **المدرسة العزيزية** التي تضم **تربة صلاح الدين** al-Madrasah) al-Aziziya -Turbat Saladin) أول مدرسة أنشأها الأيوبيون في دمشق وهي تقع شمال الجامع الأموي مباشرة. المدرسة متهدمة ولم يبق منها إلا التربة، التي تعلوها قبة مدببة تمثل القباب الأيوبية بشكلها المحزز ورقبتها المضاعفة، حيث تستند القبة إلى رقبة مضلعة مكونة من 16 ضلعا تنفتح فيها ثمان نوافذ علوية تتناوب معها من الداخل والخارج محاريب مغلقة تنتهي بطاسة صدفية. هذه الرقبة محمولة على رقبة مربعة من الخارج يقابلها من الداخل رقبة مثمنة تتناوب فيها النوافذ العلوية المزدوجة مع الحنايا الركنية التي تساهم في الانتقال من المسقط المربع إلى المسقط المثمن ثم الدائري.

المدرسة العزيزية وتربة صلاح الدين في دمشق: الفناء الداخلي مع قوس الإيوان - القبة ذات الرقبة المضاعفة

2.1. المدرسـة والتربـة العـادلية في دمشق al-Madrasah wa at-Turbah al-Adiliya

تعد المدرسة العادلية من أشهر المدارس الأيوبية التي لا زالت قائمة في دمشق. شيدها الملك العادل أبي بكر شقيق صلاح الدين سنة 612 هـ/1215 م وهي تقع في حي الكلاسة شمال غرب الجامع الأموي مقابل المدرسة الظاهرية، التي شيدت لاحقا. حالتها جيدة وكانت لفترة طويلة مقرا لمجمع اللغة العربية.

يتوسط المدرسة، كما في الفترة السلجوقية، فناء داخلي يضم بركة ماء كبيرة مربعة الشكل تتميز بالحنايا الركنية، كما في مدرسة وبيمارستان نور الدين. ينفتح على الفناء إيوانان صغيران في الشرق والغرب، الإيوان الشرقي منهما يتصل بالمدخل. يتوسط الجهة الشمالية إيوان كبير يكاد يشغل كامل هذه الجهة (تصميم متصالب)، بينما يقابله في الجنوب قاعة للصلاة، تنفتح على الفناء بباب محوري كبير له حجم وشكل الإيوان وتقع على كل من جانبيه نافذتان. تتوزع غرف صغيرة بين الأواوين وفي الطابق العلوي كانت مخصصة لإقامة الطلاب.

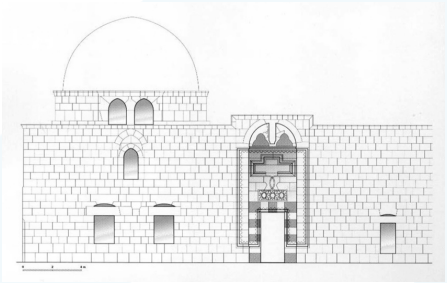

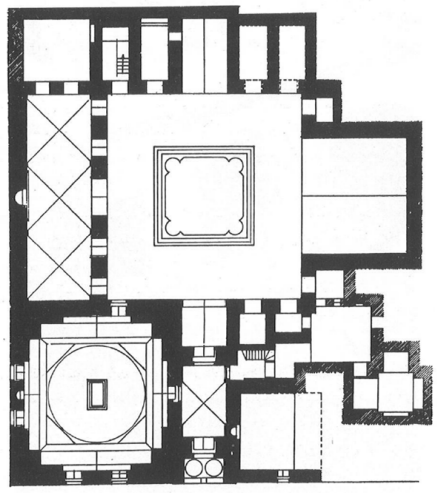

المدرسة والتربة العادلية في دمشق: واجهة شرقية - المسقط - الفناء الداخلي - البوابة الغائرة - نافذة الضريح

مدخل المدرسة يقع في الشرق ويؤدي بشكل محوري عبر دهليز وإيوان إلى الفناء. البوابة الكبيرة عبارة عن إيوان غائر ونهايتها العلوية معقودة بطريقة مبتكرة. فهي على شكل قبتين صغيرتين من المقرنصات الحجرية، يتقدمهما في الواجهة قوسان متجاوران ثلاثيا الفصوص، يتدلى بينهما حجر كبير هو قفل القوس. الباب محاط بصفوف متناوبة من الحجارة

الكلسية البيضاء والحجارة البازلتية السوداء مشكلة بداية ما يعرف بالأبلق. ويتم الربط بين الباب الغائر والبوابة بشريط زخرفي مستمر.

تشغل التربة، التي دفن فيها الملك العادل، الزاوية الجنوبية الشرقية من المبنى عند تقاطع الشارعين. وتعلوها قبة عالية ترتفع فوق رقبة مثمنة الشكل تتخللها أربعة أزواج من النوافذ العلوية، التي تتناوب في الزوايا مع سطوح مغلقة تشغلها المقرنصات من الداخل التي تؤمن الانتقال من المسقط المربع إلى الرقبة المثمنة.

كما أن هناك تطور إنشائي يتبلور في هذه الفترة يظهر في فتحات النوافذ التي تتخذ شكلا مستطيلا بسيطا ويعلو الساكف المستقيم، المكون من حجر واحد، قوس عاتق يحميه من الكسر وبينهما فراغ واضح بمثابة فراغ عاتق.

4.1. مدرسة الفردوس في حلب Madrasat al-Firdaus

شيدت هذه المدرسة، التي تقع في حي المقامات جنوب المدينة، من قبل ضيفة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر وزوجة ملك حلب، الظاهر غازي بن صلاح الدين في عام 633 هـ/1235 م.

تتميز المدرسة من الخارج بواجهاتها البسيطة جدا، المبنية من الحجر الكلسي المتقن النحت. وهي مستطيلة الشكل (57 × 45 م) ومسقطها متناظر تماما بالنسبة لمحورها الشمالي الجنوبي. يتوسطها فناء مستطيل في مركزه بركة ماء مثمنة أضلاعها مفصصة من الداخل.

ينفتح على الفناء في الشمال إيوان ضخم، بينما يحيط به من الجهات الثلاثة الأخرى رواق قائم على أعمدة تحمل أقواسا مدببة. أي أن هناك اختلاف عن أبنية المدارس السابقة وهو الجمع بين عنصر الإيوان والرواق حول الفناء الداخلي للمدرسة. خلف الرواق توجد ثلاث قاعات مستطيلة كل منها مسقوف بثلاث قباب. القاعة الجنوبية منها مخصصة للصلاة. وعلى جانبيها في زاويتي المبنى غرفتان مربعتان تعلو كلا منهما قبة أيضا. وتمتاز مدرسة الفردوس بكونها أول مبنى إسلامي في سورية يعتمد فيه التسقيف بالقباب بشكل رئيس. وهذه القباب مدببة ودون رقبة واستعملت المواشير للانتقال إلى القبة، باستثناء القبة التي تتقدم المحراب في المصلى، فهي ذات رقبة مضلعة تحوي نوافذ علوية ويتم الانتقال إليها بواسطة مقرنصات.

أما فراغات سكن المدرسين والطلاب فقد خصص لها جناحان مستقلان في الزوايا الشمالية من البناء، تتصل بالفناء الرئيسي بواسطة ممرات خاصة، يتألف كل منهما من فناء وأواوين وغرف صغيرة في الطابق الأرضي والعلوي. يوجد بين هذين الجناحين إيوان كبير يقع خلف الإيوان الداخلي وينفتح نحو الخارج، الغرض منه غير معروف تماما، قد يكون مصلى صيفيا أو جزءا من مبنى لم يكتمل.

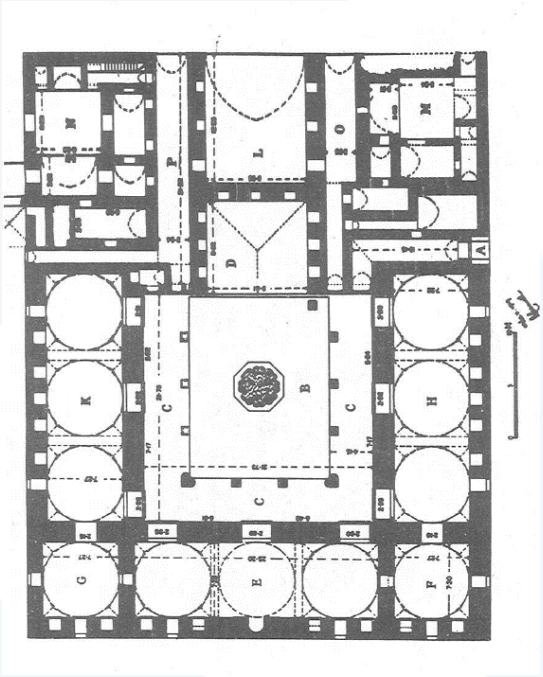

مدرسة الفردوس في حلب: المسقط - الفناء الداخلي المحاط بإيوان ورواق - التاج المقرنص - محراب قاعة الصلاة

بوابة المدرسة تقع في الجهة الشرقية وهي على شكل إيوان غائر ينتهي في الأعلى بمقرنص حجري متقن ونصف قبة محززة. البوابة تؤدي عبر دهليز منكسر إلى الرواق الشرقي ومنه إلى الفناء. تمتاز الأعمدة الحجرية للأروقة بشكل جديد من التيجان، يظهر لأول مرة، حيث استخدمت المقرنصات في زخرفتها.

تنفتح في المبنى مجموعة من النوافذ المستطيلة ذات سواكف حجرية أفقية يعلو كل منها فتحة عاتقة ومن ثم قوس عاتق لحمايتها من الكسر، بينهما فراغ عاتق.

ولا بد من التعرف على عنصر أخير تعود شهرة مدرسة الفردوس العالمية إليه وهو المحراب، الذي يعد من أجمل محاريب العمارة الإسلامية. رصعت واجهته وحنيته بالرخام الملون، وهو ينتهي في الأعلى بقوس مدبب محمول على عمودين وبنصف قبة. واجهة القوس عبارة عن شكل هندسي معقد يتألف من أقواس مفصصة متداخلة ومتعددة الألوان. وقد بدأ ظهور هذا النوع من الزخارف في حلب، في المدرسة الظاهرية ومدرسة الفردوس ومنه انتشر في أنحاء العالم الإسلامي، ومن الأمثلة على ذلك المدخل إلى حرم الجامع الأموي في حلب ومحراب الحرم الإبراهيمي في الخليل وواجهة مدرسة قرطاي في قونية.

2. العمـــارة الأيـــوبية في بـــلاد الشـــام – العمـــارة الدفـــاعية

جدد الأيوبيون سور المدينة في دمشق وبواباتها وزودوها بالعناصر الدفاعية من مرام للسهام ورواشن لصب الزيت أو الماء المغلي ومنها باب السلام وباب توما وباب الجابية وهي جميعها أبواب مبنية من الحجر الكلسي ويتم الدخول إليها بشكل مباشر.

1.2. قلـــعة دمشـــق Citadel of Damascus

تحتل قلعة دمشق الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة المسورة، يحدها شمالا فرع من فروع نهر بردى، بينما تحيط بها الأسواق من الجهات الأخرى وقد بنيت هذه الأسواق في القرن التاسع عشر بعد ردم الخندق المحيط بالقلعة ومن أشهرها سوق الحميدية جنوب القلعة وسوق الخجا، الذي كان يقع غربها وتم هدمه. القلعة هي أكبر مبنى في المدينة. وقد كانت تستخدم كسجن حتى فترة قريبة، ولم تنل وظيفة جديدة إلى اليوم لأنها لا تزال قيد الترميم ولكنها تضم معهد الآثار.

شيدت القلعة، التي نراها اليوم، في أهم أجزائها في عهد الأيوبيين وتحديدا أيام الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب، وقد بدأ البناء سنة 599 هـ/1202 م بعد هدم القلعة، التي بناها السلاجقة من قبل نظرا للحاجة إلى تجديد القلعة وتزويدها بأحدث العناصر الدفاعية المعروفة آنذاك. ولكن القلعة كانت في الوقت نفسه مقرا لإقامة الملوك والحكام الأيوبيين والمماليك من بعدهم.

شكل القلعة مستطيل غير منتظم لها بابان رئيسان الأول من الشرق من المدينة والثاني من جهة الشمال خارج المدينة سابقا. وقد أنشئت في موقع غزير المياه، إذ يحاذيها من الشمال نهر العقرباني فرع من فروع بردى ويخترقها نهر بانياس وكانت مياه هذين النهرين تستخدم لملء الخندق المحيط بالمياه في حالات الحصار.

تتألف القلعة في وضعها الحالي من ثلاث عشرة برجا مع البدنات الواصلة بينها. يأخذ البرجان الواقعان في الزاويتين الجنوبيتين شكل زاوية (حرف L اللاتيني)، في حين يأخذ البرجان الواقعان في الزاويتين الشماليتين شكل المربع، أما الأبراج الأخرى الموزعة في الأضلاع فهي في أغلبها مستطيلة الشكل طولها يساوي ضعف عرضها.

تبرز الأبراج عن البدنات باتجاه الخارج. الأبراج متقاربة فيما بينها ومزودة بمرامي السهام في كل طابق مع تصوينة علوية (شرافات) مزودة بالمرامي والسقاطات والرواشن.

كانت المسافة بين الأبراج تحسب وفق الزاوية المناسبة ووفق المدى المجدي لإطلاق السهام بحيث يحمي كل برج الأبراج والبدنات المجاورة له. مرمى السهام هو فتحة في جدار البرج أو السور تنفتح من الداخل ضمن ما يشبه الإيوان الذي ينتهي في وسطه بفتحة مائلة الجدران من الداخل عرضها حوالي 140 سم تتحول في الخارج، حيث تنطلق السهام إلى شق ضيق عرضه 10 سم تقريبا وارتفاعه 170 سم وهو ارتفاع يسمح للرامي بالوقوف. أما الروشن فهو أشبه ببرج صغير

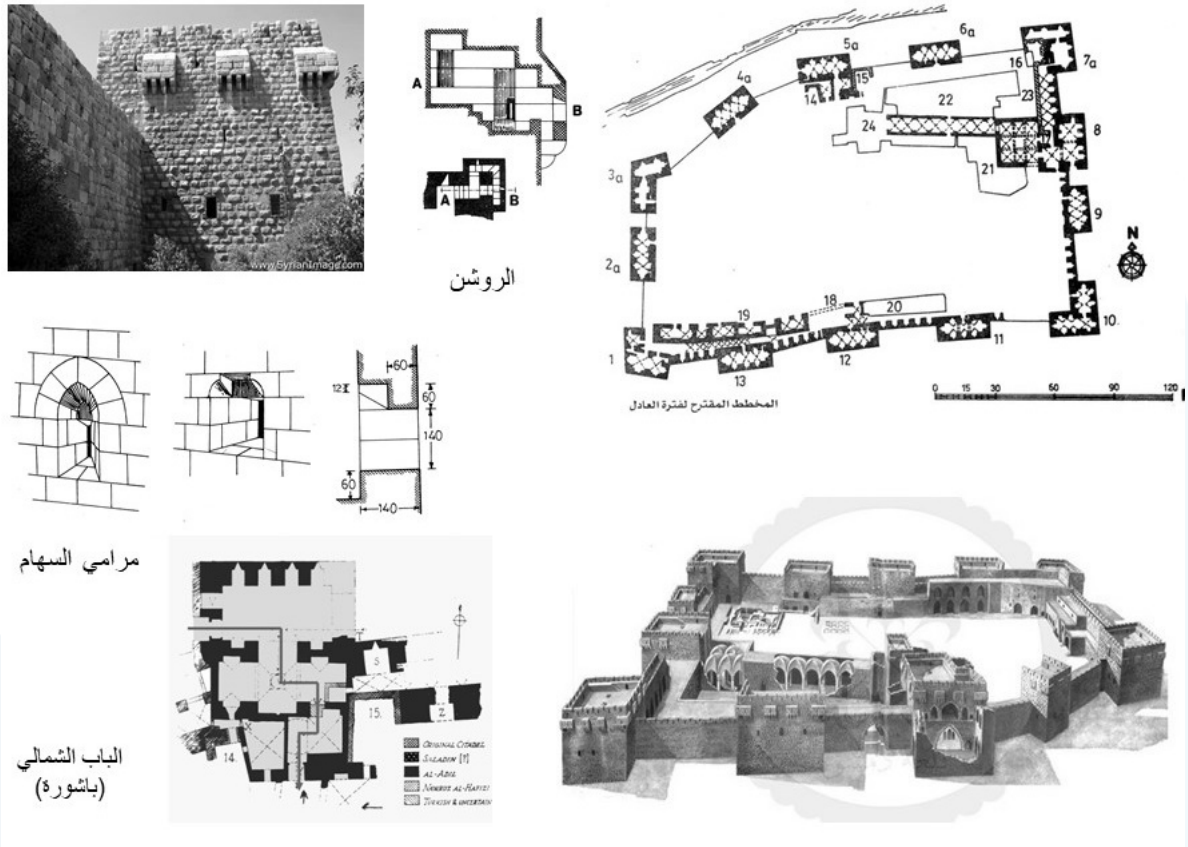

قلعة دمشق: المسقط - منظور - الروشن - البرج الشمالي الشرقي - مرامي السهام - الباب الشمالي (الباشورة)

يبرز عن جدار البرج أو السور وهو معلق فوق بوارز حجرية. أهمية الروشن تأتي من وجود السقاطات في أرضيته، أي الفتحات التي تصب منها الزيوت المغلية لتمنع المهاجمين من التسلق على الجدران.

كان للقلعة ممر دفاعي مسقوف بالقبوات المتصالبة يدور حول كامل محيطها مع ممشى على سطحه لتسهيل حركة الجنود. هذا الممر مزود أيضا بمرامي السهام. وقد تم الاعتماد أيضا على الكتلة البنائية الضخمة للأبراج، المبنية بأحجار ذات بطون تساعد على امتصاص صدمات قذائف المنجنيق الموجهة إليها وتخفف من أضرارها. داخل القلعة باحة واسعة تتضمن بعض المباني والمنشآت ولكن القصر الأيوبي دمر ونجد اليوم آثارا للقصور اللاحقة. الباب الشمالي للقلعة هو أكثر حصانة من الشرقي كونه معرض للهجوم من الخارج وهو يؤدي إلى الداخل عبر دهليز ينكسر خمس مرات وفق ما يسمى الباشورة وظيفته عرقلة عمليات الاقتحام.

2.2. سـورو بـوابـات مـدينة حلـب

دعم **سورمدينة** حلب أيام الأيوبيين وخاصة في عهد الظاهر غازي بن صلاح الدين، الذي كان واليا على حلب ما بين 1186-1216 م. زود السور ببوابات عديدة وتم تجديد البوابات الأقدم عهدا ومن أشهرها **باب أنطاكية** في الغرب و**باب قنسرين** في الجنوب.

تمتاز هذه الأبواب باستخدام أحدث التقنيات الدفاعية سواء من حيث تنظيم المسقط أو العناصر الدفاعية الموجودة فيها. ويتجلى ذلك بالمداخل الجانبية التي تؤدي بشكل منكسر إلى داخل المدينة (باشورة) وبعدد الأبواب التي لا بد من اجتيازها وكذلك وجود برج إضافي قريب لحماية البوابة من الخارج إضافة إلى مرامي السهام والرواشن والسقاطات المختلفة.

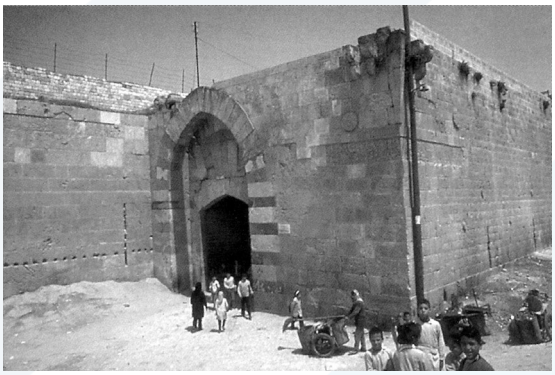

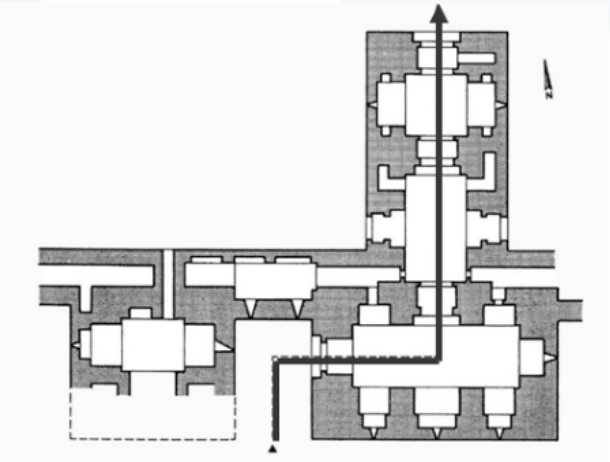

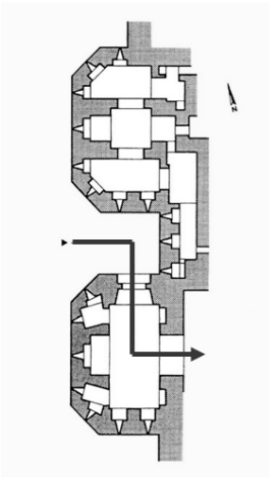

حلب باب قنسرين

حلب: باب أنطاكية

https://manara.edu.sy/

3.2. قلـــعة حلـــب Citadel of Aleppo

لا تقل أهمية قلعة حلب عما رأيناه في دمشق وإنما على العكس فإن موقع القلعة على تل في وسط المدينة يجعلها عنصرا مسيطرا في المدينة إلى اليوم. فهي لا تتوسط فقط المدينة القديمة وإنما أيضا المدينة ككل. ولم تكن القلعة تتوسط المدينة أيام الأيوبيين وإنما كانت تقع على طرفها الشرقي وتم توسيع المدينة وسورها باتجاه الشرق في فترة المماليك.

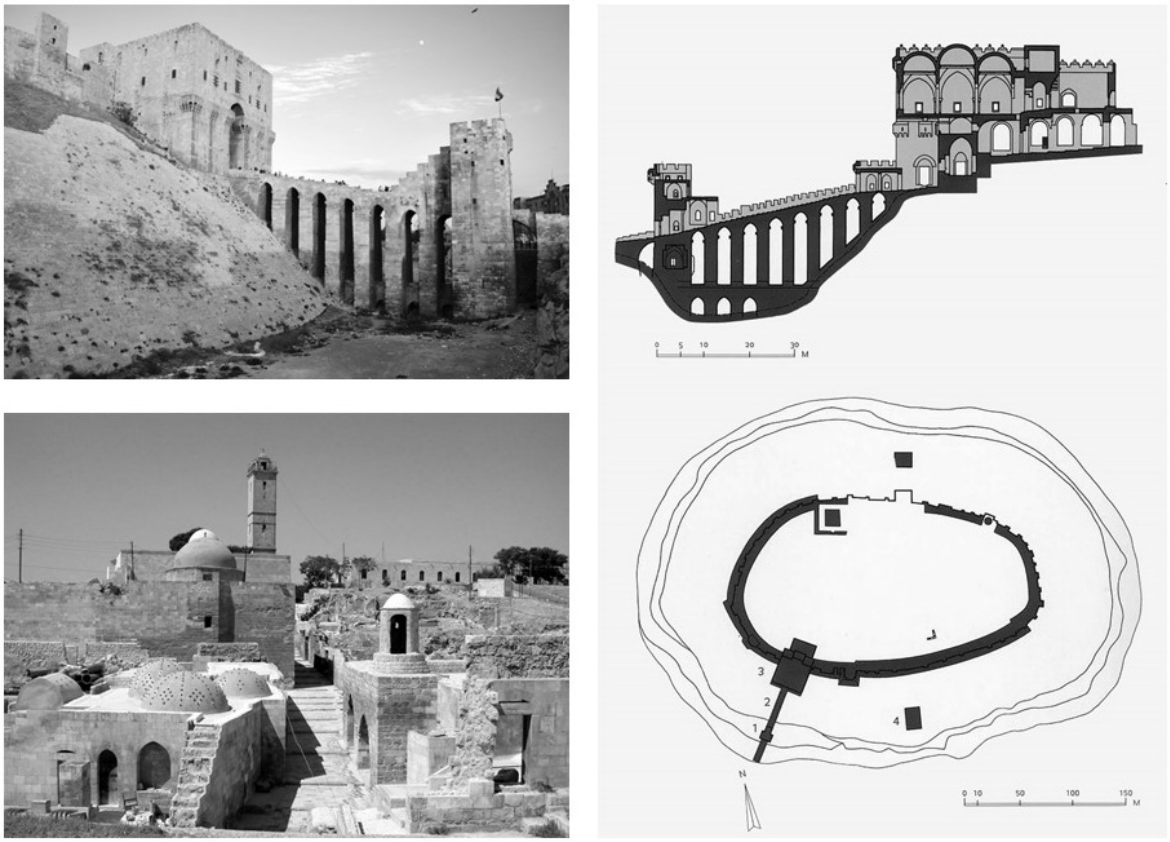

قلعة حلب: مسقط - مقطع البوابة وقاعة العرش أعلاها - البوابة مع الخندق - المباني المختلفة ضمن القلعة

قلعة حلب تعود في أصولها إلى عصور ما قبل التاريخ وإلى الفترة ما قبل الإسلامية ولكن أهم أعمال البناء في قلعة حلب تمت في عهد الأيوبيين أيام الظاهر غازي بن صلاح الدين (1186-1216 م) عندما كانت حلب مركزا هاما لمقاومة الصليبيين في شمال سورية. أولى الأيوبيون قلعة حلب أهمية خاصة حتى أصبحت أضخم القلاع الإسلامية في القرون الوسطى. وهي تمتاز بأن الصليبيين لم يتمكنوا من احتلالها أبدا.

قلعة حلب تتخذ الشكل البيضوي للتل الذي تقوم فوقه طولها 300 م وعرضها 170 م. وهي تتكون من 42 برجا مستطيلا بينها بدنات ويحيط بالقلعة خندق عميق تمت زيادة عمقه في هذا العصر وملئ بالماء. **البوابة** التي تعود إلى زمن الأيوبيين تقع في الجهة الجنوبية الغربية وتتألف من بوابة خارجية (البوابة التي نراها اليوم تعود إلى الفترة المملوكية) يليها جسر متدرج مبني على سبعة أقواس حجرية. كان هذا الجسر ضروريا لتجاوز الخندق المكسى بالحجارة المنحوتة الملساء في جهة المدخل. أما البوابة الداخلية فتتقدم دهليزا ينكسر خمس مرات (باشورة) ويجتاز ثلاثة أبواب حديدية مزودة بالسقاطات. نرى في الواجهة العناصر الدفاعية الموجودة في قلعة دمشق مثل الرواشن البارزة ومرامي السهام. أما قاعة عرش، التي أقيمت فوق المدخل فتعود إلى الفترة المملوكية (في عهد الأشرف قايتباي) وجددت في فترات لاحقة.

تذكر المصادر التاريخية عددا من المنشآت داخل القلعة في هذه الفترة، حيث أنشأ الظاهر غازي صهريج ماء ضخم ومستودعا للذخيرة ومخازن للحبوب إضافة إلى بئر عميقة، يعتقد أيضا أنه كان بالإمكان استخدامها للهرب إلى المدينة عند الحاجة.

القلعة لم تكن ثكنة عسكرية فحسب وإنما مقرا للحكم تضم القصور والحمامات والحدائق ومساجد تعود إلى عهود أقدم. تم التنقيب عن أحد القصور الأيوبية وهي عبارة عن مبنى متعدد الأفنية مركزه فناء محاط من جهاته الأربع بأواوين وتتوسطه بركة مثمنة (تصميم متصالب). الإيوان الشمالي كان يضم سلسبيلا تتدفق منه المياه ضمن الجدار. يعتقد أن هذا القصر هو الذي كان يعرف بدار العز. ويلحق به حمام خاص مكون من براني ووسطاني وجواني. وتم في هذا العهد أيضا ترميم جامع إبراهيم وإعادة بناء الجامع العلوي الكبير، الذي يمتاز بمئذنته المربعة، التي يمكن رؤيتها من جميع أنحاء المدينة والتي كانت تشكل في الوقت نفسه مكانا للمراقبة.

3. خصـــائص العمـــارة الأيـــوبية

كان يغلب على المباني الأيوبية طابع التقشف وعدم الإسراف في الزخرفة ولكنها تميزت بإتقان التخطيط والبناء والاعتماد على الحجر المنحوت كمادة أساسية وبمقاييس كبيرة خاصة في الواجهات. وطرأ تطور على تصميم المباني، حيث نجد أبنية تجمع بين الأواوين والأروقة. وتطورت القباب وأصبح بعضها يقوم على رقبة مضاعفة وانتشرت القباب المحززة مع استخدام الحنايا الركنية والمقرنصات في الزوايا.

وتمت العناية بمداخل المباني بشكل خاص، فهي تفتح ضمن ما يشبه الإيوان العالي المعقود في أعلاه بالمقرنصات وانتشرت الأقواس العاتقة والفراغات العاتقة فوق الفتحات لحماية الساكف من الكسر. ومن العناصر المعمارية التي ظهرت لأول مرة في هذه الفترة التيجان المقرنصة.